ولكن ذلك لم يكن سوى نبل ظاهري. فالرجل لم يتسامح معها من دون سبب. وهذا الذي سمح لها بالكتابة حرمها من أهم ما تطمح إليه الأنثى وهو (الأمومة). ولذلك حكاية حزينة دفعت باحثة البادية عقلها وحياتها ثمناً لها.

ذلك أن الشيخ عبد الستار بك الباسل قد تزوج ملك حفنى ناصف (باحثة البادية) بعد زواج سابق كان له منه بنت. وقد طلق زوجته الأولى وأخلص نفسه لباحثة البادية. غير أن هذا الزواج لم يفض إلى إنجاب. وسرت إشاعات تقول إن باحثة البادية امرأة عاقر. وظلت المرأة تعاني من هذه الإشاعات سبع سنوات تجرعت فيها مرارة الألم والحرمان وقسوة الكلمات والهمسات والنظرات إلى هذه المرأة العقيم. وكأن ذلك سخرية من هذه المرأة المدعية التي تتباهى بثقافتها وقلمها وتدعي العلم والمعرفة بالبشر وأحوالهم، وهي مع هذا عقيم عاجز لا تنجب ولا تتحرك في جوفها حياة.

وظلت صفة العاقر تحاصرها وتعصر روحها، وزاد من وجع الحياة حولها أن قام الشيخ عبد الستار بإعادة زوجته الأولى أم البنت.

وتذهب باحثة البادية إلى طبيب وذلك بعد سنوات من الانتظار واليأس، فيكتشف الطبيب أن المرأة لم تكن عاقراً ولكن العاقر هو زوجها الذي كان قد تعرض لحادثة أجري له بسببها عملية جراحية عاد بعدها عقيماً[31].

وكانت النتيجة هذه أقسى على باحثة البادية من كل ما جرى لها من قبل، وارتدت على نفسها وحياتها تتجرع مرارة هذا الألم الذي قضى عليها أخيراً وأسلمها إلى نهاية المطاف حيث انهارت أعصابها وماتت منهارة مكسورة.

---

(31) الجندي: أدب المرأة العربية 125.